فضل القرون الأولى من السلف الصالح

عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

١ «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي،

٢ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ،

٣ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ

٤ قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي، أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا؟ –

٥ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ،

٦ وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ،

٧ وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يَفُونَ،

٨ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[١٢٨].

(١٢٨) رواه البخاريُّ (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

آيات

- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].
- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].
- ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

الراوي

هو: عِمرانُ بنُ حُصَيْنِ بنِ عُبَيْدٍ الخُزَاعِيُّ ﷺ، أبو نُجَيْدٍ، أسلم عامَ خَيْبر مع أبي هريرة ﷺ، وغزا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ غزواتٍ، بَعَثه عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ إلى البصرة؛ ليفقِّه أهلَها، قال ابن سيرين: «لم نَرَ في البصرة أحدًا من أصحاب النَّبيِّ ﷺ يَفضُل على عِمْرَانَ بْنِ حُصينٍ، وكان مُجَابَ الدعوة، ولم يَشهَد الفتنة»، توفِّي سنة ثلاث وخمسين من الهجرة[١].

خلاصة

يخبر النبيُّ ﷺ أن خير النَّاسِ هم أصحابه الذين يعيشون في زمانه، ثم مَن بعدهم من التابعين وأتباعهم. ثم أخبر ﷺ عن فساد مَن بعد تلك القرون الفاضلة، فذكر أنهم يستخِفُّون بالشهادات، ويخونون الأمانات، ولا يُوفون بما يوجبون على أنفسهم، ويظهر فيهم أثرُ حبِّ الدنيا والتنعم بها.

(١) يراجع ترجمته في: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٤/ ٢١٠٨)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣/ ١٢٠٨)، «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٢٦٩)، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/ ٥٨٤).

١ يخبر النبيُّ ﷺ أنَّ خيرَ النَّاسِ وأفضلهم **أهلُ زمانه** من المؤمنين، وهم أصحابه الذين لقوه وآمنوا به وماتوا على الإسلام، وتحملوا عبء الدعوة وحمل راية الإسلام والجهاد في سبيل اللهِ تعالى ونصرة نبيِّه ﷺ.

وقد أثنى اللهُ تعالى عليهم في كتابه في غير موضعٍ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وأخبر في غيرها من الآيات أنَّه تاب عليهم ورضي عنهم. بل فسَّر ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما قولَه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] فقال: «أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيِّه»[١٢٩].

٢ ثم يأتي بعد الصحابةِ في الفضل والخيرية: مَن بعدهم من التابعين، الذين أدركوا الصحابةَ وتتلمذوا على أيديهم، ونقلوا عنهم كتابَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ نبيه ﷺ، وبلَّغوا عنهم أقوالهم في التفسير والفقه والتوحيد.

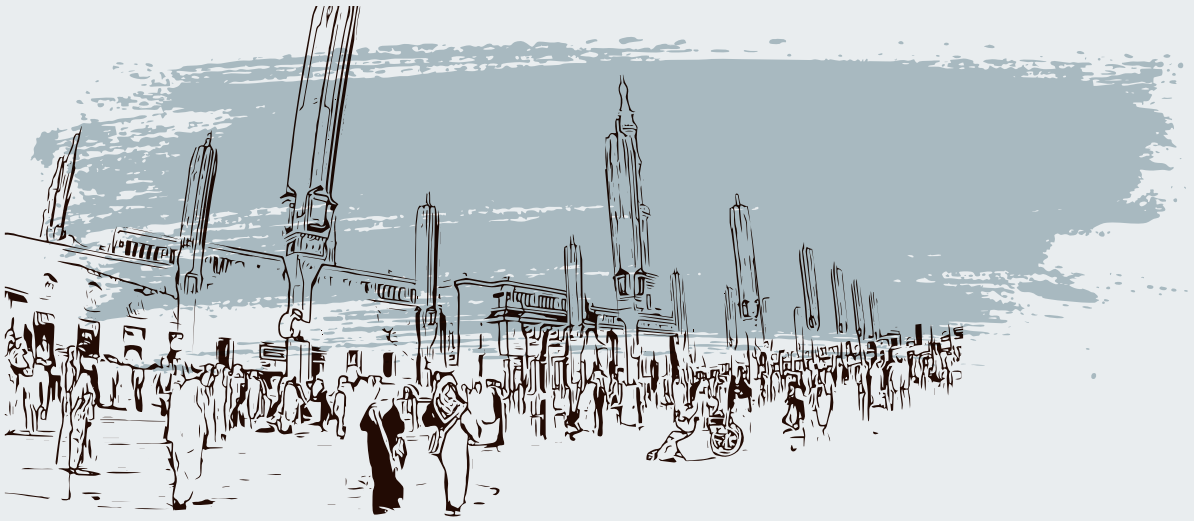

٣ ثم أتباع التابعين الذين حملوا الرسالة وبلَّغوا العلم ودوَّنوا السُّنَّة، وأظهر اللهُ سبحانه بهم الإسلام، وانتشر الدينُ في بقاع الأرضِ كلها.

وقد أثنى اللهُ تعالى على الجميع فقال في حقِّ الصحابة: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١٢٩) «جامع البيان في تأويل القرآن» للطبريِّ (١٩/ ٤٨٢).

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر: ٨- ٩]، وقال سبحانه في التابعين وأتباعهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر: ١٠].

٤ ثم إنَّ عمران بن حصين ﷺ شكَّ هل ذكر النبيُّ ﷺ بعدهم قرنًا آخر أم اكتفى بالقرنين السابقين من التابعين وأتباعهم، وأكثر الروايات جاءت من غير الشكِّ وإقحامِ قرنٍ ثالث.

٥ ثم أخبر ﷺ بما يظهر في أمته بعد ذلك من الفساد والشَّرِّ؛ حيث يكون في أمته بعد تلك القرون قومٌ يسبقون بأداء الشهادة من غير **أن تُطلب منهم**، وليس ذلك لحرصهم على أداء الشهادات وإيفاء الحقوق، وإنما لتهاونهم بالشهادات وشهادتهم بالباطل والزور، ويشهد لهذا رواية ابن مسعود ﷺ للحديث، وفيها: «ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»(١٣٠)، ومعنى ذلك أنهم لا يأبهون بالشهادة ولا يُبالون بأن يكونوا من أهلها أم لا. أما الذين يبادرون بالشهادة لإقامة العدل ونصرة المظلوم فهم خير الشهداء، كما قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»(١٣١).

٦ ومن صفاتهم كذلك أنهم يخونون الأمانات، فلا يأتمنهم النَّاس على دمائهم أو أعراضهم أو أموالهم.

٧ ومن صفاتهم كذلك أنهم لا **يُوفون** بما أوجبوه على أنفسهم للهِ تعالى أو للنَّاس؛ فإن نذر أحدهم طاعةً للهِ تعالى أو وعد إنسانًا بشيءٍ، فإنهم يُخلفون ذلك ولا يُنَفِّذوه.

وهذه الصفات التي اتصفوا بها هي صفات المنافقين الذين أخبر النبيُّ ﷺ بسمتهم في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذَبَ، وإذا وعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤتمنَ خانَ»(١٣٢).

٨ ومن سماتهم كذلك أنهم آثروا الدُّنيا وتعلَّقوا بها، حتى ظهر ذلك على أبدانهم، فأصابتهم التُّخمة والسِّمنة التي هي دليلُ الغفلةِ والانهماك في لذَّات الدنيا. ولا يعني ذلك أن يكون كلُّ سمينٍ غافلًا أو فاسقًا، أو يكون كلُّ فاسدٍ منافقٍ سمينًا، وإنما الأمر على التغليب، والمقصود أنه كناية عن حُبِّ الدنيا والانشغال بها.

---

(١٣٠) رواه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(١٣١) رواه مسلم (١٧١٩).

(١٣٢) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).

١ يجب على كلِّ داعيةٍ ومُرَبٍّ وولي أمرٍ أن يغرس في قلوب النَّاس حبَّ الصحابةِ رضوان الله عليهم وتوقيرهم.

٢ على المسلم أن يقرأ في سير الصحابة وأخبارهم، ويتأسى بأخلاقهم وإيمانهم، فهم كما وصفهم ابن عباس ﷺ: «قاموا بمعالم الدين، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين، حتى تهذَّبت طُرُقُه، وقَوِيت أسبابه، وظَهَرت آلاء الله، واستقرَّ دينه، ووَضَحت أعلامه، وأذلَّ الله بهم الشِّرك، وأزال رؤوسه، ومحا دعائمه، وصارت كلمةُ الله هي العُليا، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلى، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية، والأرواحِ الطاهرة العالية، فقد كانوا في الحياة لله أولياءَ، وكانوا بعد الموت أحياءً، وكانوا لعباد الله نُصَحَاءَ، رحلوا إلى الأخرى قبل أن يصلوا إليها، وخرجوا من الدنيا وهم بَعْدُ فيها»(١٣٣).

٣ إياك والانتقاص من قدر الصحابة أو سَبِّهم؛ فإنهم أصحاب النبيِّ وصفوةُ الخلقِ بعد الأنبياء.

٤ الأسلمُ لنفسك ودينك أن تُعرض عمَّا دار بينهم من الخلاف والفتنة؛ فهم مُتَأَوِّلون معذورون.

٥ علامة الإيمان حبُّ الصحابة، وآية النفاق بغضُهم. فانظر في نفسك؛ أمؤمن أم منافق؟

٦ اقرأ سير التابعين من أعلام الأمة، لتتأكد كيف صاروا خيرَ النَّاس بعد الأنبياء والصحابة.

٧ عليك أنْ تترضَّى عن أصحابِ النبيِّ ﷺ، وتترحم على التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وتسأل الله سبحانه أن يجمعك بهم مع النبيِّ ﷺ في الفردوس الأعلى.

٨ من الأمانة العلمية أن تُبين شكَّك أو خطأك في مسألةٍ ما، بدلًا من أن تكابر وتجادل، فتَضِلَّ وتُضِلَّ.

٩ الشهادة أمرٌ عظيمٌ وخطرٌ كبيرٌ، فإياك والاستهانةَ بأمرها، فإن اتضح لك أمرٌ وضوحَ الشَّمسِ وكنتَ أهلًا للشهادة فافعل، وإلا فلا.

١٠ لا يتعارض هذا الحديث مع المبادرة إلى الشهادة بما علمت يقينًا؛ فلا تنتظر دعوةَ مظلومٍ لشهادتك، بل بادِر بالشهادة، خاصةً إذا لم يقم مقامَك أحدٌ.

١١ إياك وخيانة الأمانات؛ فقد نهى اللهُ تعالى عنها فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

---

(١٣٣) «مروج الذهب» للمسعوديِّ (١/ ٣٧١).

١٢ من خيانة الأمانات: عدم إتقان العامل في عمله، والغش في الامتحانات، والغش في البيع والشراء والمعاملات، والتَّغرير بالمرضى لدفع أموالٍ باهظةٍ فيما لا يستدعي.

١٣ الوفاء بالوعد من علامات المؤمنين وأخلاقهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠]. فتحلَّ بصفات المؤمنين، وإياك وصفات المنافقين.

١٤ النَّذرُ مكروهٌ، لأنك يلزم نفسك بشيء لا يلزمك في أصل الشرع، فتحرج نفسك وتثقلها بذلك، لكن إذا نذرتَ شيئًا لزمك الوفاءُ به، قال تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾ [الحج: ٢٩].

١٥ لا تتعلق بملذَّات الدنيا وشهواتها، بل خذ من الحلالِ ما يُقيم قوتَك ويُغنيك عن الحرام؛ فإن الانشغال بالدنيا مُؤْذِنٌ بالإعراضِ عن الدين.

قال الشاعر:

إنّ الذوائبَ مِنْ فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ ... قَدْ بيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَن كانَتْ سرِيرَتُهُ ... تَقْوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شَرَعَوا

قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أوْ حاوَلُوا النَّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّةٌ تلكَ منهمْ غيرُ محدَثةٍ ... إنَّ الخلائِقَ، فاعلَمْ، شَرُّها البِدَعُ

لا يَرْقَعُ النّاسُ ما أوْهَتْ أكفُّهُمُ ... عندَ الدِّفاعِ، ولا يوهونَ ما رَقَعوا

إنْ كان في الناسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ ... فكُلُّ سَبْقٍ لأدنى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

ولا يَضَنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمِ ... وَلا يُصِيبُهُمُ في مَطْمَعٍ طَبَعُ

لا يَجهَلونَ، وإن حاولتَ جَهْلَهمُ ... في فضلِ أحلامهمْ عن ذاكَ مُتَّسَعُ

أعِفّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْيِ عِفَّتُهُمْ ... لا يَطْمَعُونَ، ولا يُرْديهمُ الطَّمَعُ

كَمْ من صَدِيقٍ لهمْ نالوا كرامتَهُ ... ومِنْ عَدُوٍّ عَليهِمْ جاهِدٍ جَدَعوا

أَعطَوْا نبيَّ الهُدى والبِرِّ طاعتَهمْ ... فمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عنْهُ وَما نَزَعُوا

أكرِمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شِيعتُهُمْ ... إذا تفرَّقَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ